إخوة أمام الله

بدو سيناء ورهبان دير سانت كاترين

د. عبد الحميد صبحى ناصف[1]

ينظر إلى دير سانت كاترين أسفل جبل سيناء على أنه واحد من أعظم وأقدم المؤسسات الدينية فى العالم، ويؤرخ له كوحدة كاملة البناء منذ عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٦) فى القرن السادس الميلادى، وقد أخذ الرهبان طريقهم نحو سيناء، ومنذ فجر المسيحية، وفى أثناء الاضطهاد الرومانى تمكن كثير منهم من الهرب من مصر نحو سيناء لشهرتها الدينية، وارتباطها بالنبى موسى (عليه السلام) وأولاد إسرائيل. فقد كانت لها جاذبية كبيرة طبقًا لتخيل المسيحيين، وأصبحت سيناء ملتقى الأحبة الورعين من قارات العالم القديم.

والآن لم يبق سوى الدير، الذى هو كنز عظيم نادر، يهم معظم علماء الآثار والفن المعمارى واللاهوت والمؤرخين، ومع أن الدير يعتبر أحد أهم مقدسات العالم المسيحى فى العالم إلا إنه له مكانة مرموقة ومبجلة عند جموع المسلمين، وعلينا أن نتذكر بعض الآيات القرآنية التى ذكر فيها جبل طور سيناء، سورة البقرة الآية ٦٣، وسورة المؤمنون الآية ٢٠، وسورة الطور الآية ١٠، وسورة القصص الآية ٤٦، وسورة طه الآية ٨١، وسورة النساء الآية ١٥٤، وهناك فضلاً عن ذلك المسجد المشيد داخل الدير ومساجد أخرى خارجه. وعلى هذا النحو فالدير رمز حى لوحدة الأديان وانسجامها على مر العصور.

فهناك فترات ومواقف عديدة وضح فيها عمق ومتانة العلاقات بين الطرفين المتجاورين. فعلى حسب التراث المسيحى قام بعض الرهبان فى سنة ٦٢٥م برحلة إلى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) يطلبون الحماية بل زعموا أن النبى زار الدير حيث تمت استضافته، وفى المقابل منحهم الوثيقة المعروفة باسم «عهد النبى»، وشهد عليه صحابته الذين وردت أسمائهم فى الوثيقة، والعهد موجود بمكتبة الدير، وفيه: على المسلمين ألا يغيروا وضع

(١) دكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر.

الرهبان، أو يجبروا الجماعات المسيحية، وأن لا يخلعوا أسقفًا من أسقفيته، أو يخرجوا قسيسًا من دينه أو راهبًا من قلايته، وحتى تمادت الوثيقة أن النبى هو حاميهم، وأن من لا يلتزم بهذا سيكون مخالفًا لشرع الله وسنة نبيه، هذا وقد حافظ الحكام المماليك والعثمانيين على تلك التقاليد الإسلامية العريقة.

وفيما يتعلق بقوانين الدير فهو يتبع نظام القديس باسيل (القيسارى)، الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى، وهو أول من غير الزهد الصحراوى إلى حياة الرهبانية المنظمة التى صارت محكومة منذ ذلك الحين فصاعدًا بالقوانين الديرية، وعلى حكم العادة كان الرهبان يصحون على رنة من الجرس تمثل العمر التى مات فيها السيد المسيح، وبعد نحو الساعة فى صلاة الصبح بكنيسة البازيليكا كانوا يشغلون أنفسهم فى مهامهم حتى مجىء وقت الغذاء الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، الذين يتناولوه سويًا فى قاعة الطعام، وفى الساعة الثالثة يدق الجرى ثلاث مرات لمتابعة صلوات المساء، وبعدها يتناولون طعام العشاء فى قلايتهم[1].

وعن الظروف المعيشية للرهبان فيبدو أنهم كانوا يعيشون عيشة فقيرة، فلا يأكلون اللحم، ومن آن لآخر يتناولون السمك المجفف، والجبن المجفف، أما الأغذية الأخرى كالدقيق والأرز والبقول فغالبًا ما كانت تأتى بالجمال من القاهرة، وكان تأخير القوافل بسبب البدو، أو وعورة الطريق يسبب مصاعب كبيرة لأن إنتاج حدائق الدير كان موسميًا ولا يفى بالحاجة تمامًا[2]. ولا غرو إذن أن سمى من قبل الفرنسيين المصاحبين للحملة بالسجن المقدس على اعتبار أن علاقات الدير بالعالم الخارجى لم تفتقد الخروج لشراء الاحتياجات الضرورية للرهبان[3].

والبدايات التاريخية للعلاقات بينهما قديمة قدم الدير، بل قبل بناء الدير. فبالنسبة لحراس الدير الأوائل برزوا كعنصر منفصل حدثنا عنهم بإسهاب بروكوبيوس المؤرخ الخاص للإمبراطور جستنيان، والذى قال إن جستنيان قد أمر بإقامة هذا الدير والكنيسة ليكون حصنًا يلجأ إليه الرهبان إذا هاجمهم البدو، الذين هم غالبًا من عنصر الأنباط،

(١) انظر: آن وولف: كم تبعد القاهرة، ت قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٩.

(٣) وصف مصر، الجزء الثانى: العرب فى ريف مصر وصحراواتها، ص ١٠٧.

حيــث تميزوا بالبأس والقــوة وكانت عاصمتهم فى بطرة جنــوب البحر الميت بالأردن، ونحــن نعلم ممــا كتبه الراهب (نليــوس) عنهم أن مــكان عبادتهم كان فــوق قمة أحد الجبال، حيث يعبدون نجمة الصباح وهى الإله المعروف باســم ذى الشــرى (Dusara) لدى الأنباط، وفى آخر القرن الســادس الميلادى ذكر الراهب أنطون الشــهيد أنهم كانوا يعبدون القمر، وفى العصور الوســطى ذكر بعض الرحالة العرب أنهم كانوا يعبدون صنمًا فوق جبل حمام فرعون على مقربة من وادى الغرندل عند ســفح جبل موســى[1]، وهناك نظرية أخرى ترجع أصل هؤلاء الحراس الأوائل إلى الصرب أو البوســنة[2]، ويرى الأنبا دميانــوس أن هؤلاء البدو البربر – كما يفضل أن يطلق عليهم – يعود أصلهم إلى جنوب الســودان والحبشــة، وأنهم قاموا فى القرنين الرابع ثم التاسع الميلادى بمجازر وحشية راح ضحيتها فى المرتين حوالى أربعين راهبًا فى الطور، ومثلهم فى دير ســانت كاترين، وقد دون تلك الحوادث المؤرخ المصرى أمونيوس[3]. وبنى الرهبان كنيسة الأربعين تكريسًا لذكرى استشهاد هؤلاء الرهبان.

كما ذكر بطريرك الإسكندرية أفتخيموس أن خدام الدير الحاليين هم أحلاف للعائلات التى كان قد أرســلها جستنيان، ويشــكلون قبيلة واحدة من القبائل العربية القاطنة أرض سيناء، وأنها تعرف باسم «الجبالية»[4]. ويلاحظ أن عدد الرهبان داخل وخارج الدير كانت تزيد أو تقل أو تســتقر على حســب طبيعة العلاقات مع البدو، ففى ظل الســلام النسبى الذى عاشه الدير منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تراوح عددهم ما بين ٤٠ و٦٠ راهبًا، وبعد ما يزيد على الثلاثين عامًا فى ٢٩ أكتوبر ١٣٨٥م وجد الرحالة «ليوناردو دى فوسيكو بالدى» وصحبته التوسكانيون حوالى ٢٠٠ راهبًا مقيمين هناك، وعلى حسب رواية فيلكس فابرى فقد نزل بعددهم إلى ثلاثين راهبًا فقط عام ١٤٨٠م.

---

(١) أحمد فخرى: «تاريخ شبه جزيرة سيناء منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام»، فى موسوعة سيناء، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١١٤.

(٢) إبراهيم غالى: سيناء المصرية عبر التاريخ، ١٩٧٦م، ص ٤٧.

(٣) نعوم شقير: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، بيروت ١٩٩١م، ص ٤٧٩ – ٤٩٠.

(٤) أفانجلــوس بابايوانوبــى: دير طور ســيناء، ت صليب خــورى وفيليب حابرة، إصدار طور ســيناء، ١٩٧٧م، ص ٤٤؛ محمد محمود الســروجى: «الوثائق العثمانية بدير ســانت كاترين» دراســة تاريخية، الدارة، ع ٢، السنة ٨، ١٩٨٢م، ص ١٠٧.

وبعــد أكثر من قرن، عندما وصل كريســتوفر هارانــت وزوج أخته الذى جاء من برانج للدير فى أكتوبر ١٥٩٨م كانت الأمور قد انعطفت نحو الأســوأ فعندما ترجلوا ودقوا أبواب الديــر أحاط بهم بعض البدو الصاحنين وقيل لهم إنهم عانوا قبل مجيئهم بوقت قصير من غارة خطيرة قام بها بعض البدو الخارجيين على القانون ولم يصد الغارة سوى تلك الأقفال القوية الموجودة على الأبواب الصلبة المزدوجة، وأن هؤلاء البدو لم يذهبوا إلا بعد أن أخذوا رشوة على جارى العادة[١]. والفترة الممتدة من القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشــر تكاد تكون مبهمة فى تاريخ سيناء، فالكتابات عن سيناء ولاسيما من ناحية القبائل وتوزيعها تكاد تكون كتابات ضئيلة.

ومــن أهم القبائل التى وجدت بجانب الدير قبيلــة الجبالية التى كانت وما تزال تقوم بخدمة الدير، ولكنهم منذ أن دخلوا فى الإسلام، أو منذ أن حل محلهم العربان الآخرون لم يعــودوا يترددون على الدير أو خدمة الرهبان بأفضــل مما تفعله بقية القبائل الأخرى، ويراهم البعض أنهم أكثر هذه القبائل بؤسًا[٢]، والنظريات حول أصل قبيلة الجبالية عديدة ومتضاربة، فالمســتعرب الروسى بيرمينوف يرجع أصلهم إلى منطقة الفلاشيا أو الفلاخ على البحر الأســود[٣]، بينما يعتقد غالبية المؤرخين بما فيهم الجباليين الحاليين أنفسهم بأنهم هم الســلالة المباشــرة لهؤلاء الحراس القدماء، ويوجد بمكتبة الدير معلومات عنهم توضح مــا كان يلاقيــه الرهبان من عنت هؤلاء الجبالية. أما المؤرخ المقريزى فيرى أن الجبالية هم فرع من العقاقرة الذين هم بدورهم بطن من بطون قبيلة الســود، أى التى هى فرع رئيســى من بنى سليم[٤].

وانقســمت الجبالية إلى بطون منها السلايمة والحمايدة والوهيبات وأولاد جندى وأولاد رزين. ويغلب أحيانًا أن تكون تسميتهم مستمدة من المنطقة الجبلية المرتفعة التى سكنوها،

(١) آن وولف: مرجع سابق، ص ٢٩١.

(٢) جـ. كوتل: ملاحظات حول طبوغرافية شــبه جزيرة ســيناء: التقاليد والعادات والصناعة والتجارة...، وصف مصر، جـ ٢، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٣١؛ إبراهيم غالى: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٣) بيرمينوف: «الحجاج الروس فى ســيناء» فى دورية نحن والعرب، م٣، موســكو، ١٩٩٠م، ص ١٧٩؛ الهلال جـ ٥، ١٩١٥م، ص ٤٤، ٤٥.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٦٧؛ عباس عمار: المرجع الســابق، ص ١٨١، ١٨٢.

وهم يختلفون اختلافًا ملموسًا عن سائر البدو فى الجنوب، فى تقاطيعهم وطبائعهم مما حدا بغالبية الكتاب أن يعتبرونهم من غير البدو، وأن ينعتهم بأنهم من سلالة أولئك الفلاحين الذين أتى بهم جستنيان. وقد ساعد على ذيوع هذا الاعتقاد أن بدو سيناء الجنوبيين ينظرون للجبالية على أنهم أقل منهم مكانة فلا يتصاهرون معهم ولا يحترمونهم، وأن الجبالية يختلفون مع البدو الآخرين فى قيامهم بزراعة حدائق الدير وخدمة الرهبان، الذين يتعهدون بدورهم بمأكلهم ومشربهم، ويزودنا ج. كوتل ببعض الأوصاف الخاصة لهؤلاء البدو المحيطين بالدير فيقول إنهم ذو قامة يبلغ طولها فى المتوسط من متر ونصف المتر إلى المتر الواحد، ولون بشرتهم مائل إلى السمرة الشديدة، وعيونهم حادة سوداء، وأجسادهم نحيفة فى العادة، وتقاطيعهم جادة دون أن تحى بالكآبة، ويدينون بالإسلام.

وتذكر المصادر أن آخر امرأة مسيحية منهم ماتت فى عام ١٧٥٠م، وهم يدينون بالإسلام الآن، لكنهم لا يعرفون عن الإسلام سوى اسمه، ولا عن القرآن سوى الشهادة[١]، ويحج هؤلاء البدو إلى مقام النبى هارون بقرب كنيسة الدير، وقد خصصت لكل قبيلة يوم تقوم فيه بزيارة الدير والصلاة فى جامعه، والصعود إلى جبا المناداة، ثم يعودون إلى الدير ثانية ليتزودوا بالخبز والماء، وفى المساء يتوجهون إلى مساحة فسيحة بجوار هارون حيث ينحرون الإبل ويقضون ليلتهم فى التعبد والصلاة، ويعتبر هذا اليوم بالنسبة لهم بمثابة فرصة عزيزة للاجتماع وتبادل الأخبار والآراء[٢].

ومع ذلك فالجبالية يعتبرون أنفسهم رومانيين منتمين إلى جنسية رهبان الدير، ويفتخرون بهذه التسمية معتزين بأروميتهم، وعليهم واجبات خاصة فى الدير كما أن لهم حقوق، وبالرغم من إسلامهم فقد حافظوا إلى حد ما على بقايا إيمانهم المسيحى القديم، واعتبروا الدير ورئيسه أعلى سلطة إدارية وقضائية لقبيلتهم، وقد خص الكتاب الأوروبيون قبيلة الجبالية بالذكر، زعموا بأنهم سلالة الحرس الصقالبة الأولين الذين أتى بهم جستنيان،

(١) جـ. كوتل: المصدر السابق، ص ١١٩ – ١٢٠؛ أفانجلوس: المرجع السابق، ص ٤٤. ويذكر أن شيخ القبيلة الحالى يدعى محمد راضى أبو الهيم، وقد أعدت الباحثة إيمان البسطويسى الدارسة فى الأنثربولوجيا أطروحة عن قبيلة الجبالية فى الجامعة الأمريكية.

(٢) محمد السيد غلاب: موسوعة سيناء، ص ٤٦، سامى شنودة: الصور المقدسة بدير القديسة كاترين، مجلة آداب الإسكندرية، م ١٤، ١٩٦٠م، ص ١٩٣، أحمد شفيق: مذكرات عن زيارة إلى دير طور سيناء وطواف بالسيارات من البحر وسيناء، القاهرة، ١٩٢٧م، ص ١٩، شقير: المرجع السابق، ص ١٣٢.

ولكــن ألا يمكــن النظر إلى الجبالية نظرة أخرى، واعتبارهــم بدوًا قربهم الرهبان إليهم فى أول الأمر، ثم خصوهم بحماية الدير، وأشركوهم معهم فى العناية بحدائق الدير ومزارعه، وهكذا أصبحوا فى شــبه عزلة عن باقى القبائل الأخرى، ونظر إليهم بقية البدو على أنهم خــدام للنصارى، ومــن ناحية أخرى قد يفترض البعض أن شــيئًا من الاختلاط قد حدث بين الرهبان الذين كان عددهم كبيرًا، وبين هؤلاء الجبالية. وعلى ذلك يكون هذا الاختلاط من الأســباب التى أدت إلى هذا الاختلاف الذى يظهــر فى تقاطيع الجبالية إذا ما قورنوا بتقاطيع غيرهم من البدو الآخرين، وهكذا قيض لقاطنى الدير أن يجدوا أسلوبًا للعيش الآمن حتى مع المسلمين المحيطين بهم[1].

وبجانب الجبالية وجدت قبائل أخرى، بعضها ما يزال باقيًا، مثل قبائل أولاد سعيد، وأولاد واصل، والصواحلة، والقلقاه الذين كانوا يوردون الملح للدير بعض الوقت، كما كان خفــراء الدير فى بعض الأوقات ينتمون إلى قبائل العوارمة والزهيرات والعليقات، بالإضافة لأولاد على[2]، والعايد، والبراغثه.

ومعروف أنه أطلق على سكان القسم الجنوبى من سيناء اسم الطورة نسبة للطور، وكان من أهم قبائله أولاد ســعيد والعوارمة، والفراشــة ومزينة، والجبالية، والطورة ليسوا سكان سيناء الأصليين، فقد وفدوا على البلاد إبان موجة الفتح العربى الكبرى عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وســلم، وأغرتهم سيناء باختيارها مكان للاستقرار خاصة فى السنوات التى تلت الفتح الإسلامى لمصر، وذلك بسبب نقل التجارة بين آسيا وأوربا وأفريقيا، وخفارة دير

(١) عثــر د/ ســوريال فى مكتبة الدير علــى وثيقة من نوع متفرقــات Miscelleneous تتحدث عن حالة طلاق أو انفصال وقعت عند أناس من البدو المحيطين بالدير، وفيما يبدو أنهم أودعوا تلك الوثيقة عند الرهبان. انظر:
Atiya, «the Arabic Tresuress of the Convent of Mount Finai» in Proceeding, Vol.II, 1952, P20; Arabic Monuseripts of Mount Finai, Baltimore, 1954, p24 – 25.
انظر المصحف رقم ٦٨٨ سيناء – عربى من نوع المعاهدات بين قبيلة الجبالية ورهبان الدير. وقد حرر ذلك المصحف فى الفترة من ١٥٧٥م – ١٦٨٢م.

(٢) العايد: قبيلة أصلها من ســيناء، إلا أن أناســها تحضروا وتركوا شــبه الجزيرة واستقروا فى محافظة الشرقية، وقد عهدت الحكومة المصرية إليهم مهمة خفر المحمل الشريف من مصر إلى العقبة، ولم الإشراف على قبائل كثيرة منها الطورة، وفى بيت شــيخهم كانت تحرر العقود والمعاهدات بين عرب الطور ورهبان الدير بشــأن تأمين الطريق من وإلى الدير. انظر: أحمد لطفى السيد: قبائل العرب فى مصر (القاهرة: ١٩٣٥م)، ص ٨٢؛ إيمان عبد الفتاح: العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٧م)، ص ٦٣.

طور سـيناء، وحيث كان يسيطر على قلب سيناء وقتها عربان بنى سليمان، وبنى واصل، ولكن العليقات والصوالحة انتزعتا البلاد منهم[1].

أيضًا وجدت قبائل أخرى كانت على علاقات مباشرة أو غير مباشرة مع الدير وأهله، مثل قبيلتى التبنة والمواطرة اللتين يرجع تاريخ علاقاتهما مع الدير إلى أواخر القرن السادس عشـر، ولعلهـا من القبائل التى اسـتعان بهم الرهبان فى البدايـة كحماة لهم ضد غارات القبائل الأخرى، وفى الكتابات المحفوظة بالدير منذ أواخر القرن السـادس عشر يشار إلى قبيلة بنى واصل، وفى الغالب أنها من بطون بنى عقبة التى جاءت من شمال الحجاز ومن شـرق مصر، ومن المعروف أنهم كانوا يسـكنون فى القرن الرابع عشر فى جبلى طى: أجا وسـلمى، كما سكنوا جزام فى شـرقى الديار المصرية، واقتسموا البلاد مع قبيلة الحماضة إلا إنهم ضعفوا بسـبب كثرة الخلافات مع القبائل الأخرى على أسـبقية نقل الحجاج إلى الدير، مما أدى إلى استيلاء الصوالحة والعليقات على أرضهم[2]، ولم يكن قد بقى منهم فى أوائل القرن العشـرين سوى عشرون منزلاً دخل أهلها فى حمى الصوالحة، وكانوا من قبل يتمتعون بحق نقل البضائع إلى دير القديس أنطونيوس فى البحر الأحمر[3].

ويرى المقريزى أن بنى واصل هم فرع من عقبة يعيشون فى جنوب سيناء، وأطلق اسمهم على عزبة تقع بمواجهة بنى سويف، حيث كانوا إلى عهد ليس ببعيد يتمتعون بحق نقل البضائع إلى دير أنطونيوس، كما أسلفنا، وورد أقدم ذكر لهم فى سيناء فى كتابات الدير[4].

وينفرد بوركهارت بالإشارة إلى قبيلتى الربابيين والصبايحة، حيث استطاع أن يحصل مـن المخطوطـات العربية المحفوظة بالدير والمدونة فى أوائل القرن الثامن عشـر على خبر

---

(١) محمـود زايد: «قبائل سـيناء العربية»، الهلال، يونيـو ١٩٧١م، ص ٢٤، ٢٥. وللمزيد من التفاصيل عن تلك القبائـل، انظـر: المقريزى: البيان والإعـراب، ص ٤٦، ١٦٠؛ ليلى عبد اللطيف: سياسـة محمد علـى إزاء العربان (القاهرة: ١٩٨٦م)، ص ٣٨ – ٣٩؛ سميرة فهمى: دور عربان الوجه البحرى فى تاريخ مصر العثمانية ١٥١٧م – ١٧٩٨م (دكتوراه) كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٦١ – ٦٦ – ٦٧.

(2) The Conparative Geagrophy of Palestine and The Ritiei, Sinatite Peninsule, pp. 1927. The Wilderness of Sinai, 1866, V. I, P. 932l Beadnell 11 – 12.

نقلا عن عباس عمار: ص ١٢٠ – ١٢٢؛ إيمان عبد الفتاح: المرجع السابق، ص ٦٢.

(٣) محمود زايد: المرجع السـابق، ص ٢٥؛ للمزيد من المعلومات عن دير القديس أنطونيوس، انظر: الفريد بتلر، الكنائس القبطية فى مصر، ت إبراهيم سلامة، ١٩٦٣م، جـ – ١، ٢٩٠ – ٢٨٣.

(٤) المقريزى: المصدر السابق، ص ١٨، ١٤٩؛ عباس عمار: المرجع السابق، ص ١٢١.

مضمونــه أن هاتــين القبيلتين كانتــا ضمن حرس الدير، والربانيون هــم من أفخاذ جهينة بالحجاز، ومنهم من ســكن قرب المويلح، كما ســكن بعضهم حول الطور كحراس لأملاك الدير، أما عملهم الأساســى فكان إرشــاد الســفن إلى مرفئى الطور ولا يوجد الآن أثر يذكر للقبيلة الأولى[1].

ومــن العادات التى ظلت ثابتــة برغم تغير الظروف والأحداث، ظاهرة العطف من قبل الدير نحو هؤلاء البدو، والتى اتخذت صورًا متعددة أهمها إعطاء البدو الطعام يوميًا، ففى حــدود العاشــرة صباحًا، وحتى الواحدة ظهرًا يندفع البــدو ناظرين بتلهف نحو الحظيرة Pent House ينتظرون حصتهم التقليدية من الخبز، فيحصل الرجل على خمسة أرغفة، والمرأة والطفل حتى ولو كان رضيعًا على ثلاثة أو أربعة أرغفة، ويوزع أيضًا بعضًا من السمن والأرز والزيت والبن والخل والسبرتو بمقادير قليلة، أو يوزع عليهم يومًا بعد يوم ما يعادل ثلاثة وثلاثون[2]كيلة مصرية فى كل مرة، وفى بعض الأحيان كان الدير يقيم الولائم للعربان على شرف الزائرين، ويطبخ فيها العدس والأرز.

كمــا كان الرهبان يوزعــون على المرضى من البــدو الكينا وأنواع المشــروبات والأدوية الموصوفــة لهم مــن قبل طبيب الرهبان، وطبقًا لأقوال العربــان كان يتم توزيع حوالى ٣٢٠ أوقية[3]مــن الخبز يوميًا، ويذكر الرهبــان أن الكمية الموزعة على البدو من القمح كانت فى حدود ٣٠٠ أردب[4]، وحوالى ٤٥ أقة من الزيت من نتاج محصول بساتين الدير، وما يقرب من ١٣٠ أردبًا من الأرز، و٥٠ من الذرة، و٨٠ من الشعير. وبالنسبة لتوزيع الأطعمة فكان يتم بواســطة شــبه مشربية فى أعلى سور بالضلع الشــرقى للدير، وأما عن خدام الدير من البــدو، فقــد كانوا يتقاضون أجرة شــهرية عينية عبارة عن كيلات مــن القمح، أما خفراء الكروم فكان لكل منهم ثلاثة أرغفة صبيحة.

وقد ذكر الرحالة الروســى باســيل جوجارا عام ١٦٣٤م أن رهبــان الدير كانوا يقومون بإطعام حوالى خمســمائة من البــدو خوفًا على حياتهم، وكانوا يضعــون الطعام فى أجولة

(١) عباس عمار: المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٢) تختلف قيمة وزن الكيلة من نوع لآخر فمثلا كيلة الأرز الشعير تعادل ١٢ك. وكيلة الأرز الأبيض ١٠ك، كيلة الذرة تعادل ١٣ك، كيلة الفول ١٣ك، وهكذا.

(٣) الأوقية تساوى كيلو وربع الكيلو.

(٤) الإردب يساوى ١٥٠ كيلو جرام.

مصنوعــة من الجلد، ثم ينزلونهم خلف أســوار الدير عن طريق حبــال سميكة، وإذا جاء الصباح ولم يســتطع الرهبان لســبب أو لآخــر أن يعطوهم المعلوم من المؤونــة، يقوم البدو برجمهم بالحجارة من خارج أســوار الدير، وذلك طبقًا لرواية بوســيناكوف الذى ذكر أنه شاهد ذلك بنفسه[1].

وفــى حالة وفاة أحد البدو كان الرهبان يمــدون العائلة المكلومة بالكفن والقطن ولوح صابــون للمتوفى، وقدحين من القمح، ومثلهما مــن العدس، والبن، وثلاث أوقيات من التمر لكى توزع صدقة على روح المتوفى، كما تكفل الدير بالصرف على تكاليف الدفن، وإذا اســتضاف الرهبان شــيخ من البدو بالدير أو فى مركز الطور أو بالمركز الرئيسى فى الجوانيــة بالقاهرة ذبحوا له وأكرموا وفادته، وقدموا العلف إلى بهائمه[2]. وإذا ما حضر العربان عيد موســى فى ٣ ســبتمبر مــن كل عام – ودائمًا ما كانــوا يحضرونه – يوزع الرهبان عليهم الطعام والمشــروبات، وفى فترة متأخرة أنشــأ الدير مدرسة مجانية لتعليم أبناء البدو.

أما موجبات تلك المعاملة الحســنة التى نالها البدو من قبل الدير فكانت ترجع أساسًــا إلى الخوف من بطش هؤلاء البدو، ومن اعتدائهم المتكرر على الدير، وبخاصة إذا لم يزودهم الرهبــان بالمؤونة المتفق عليها مقابل الخدمات التــى كان يبذلها البدو للدير وزواره، وتلك الخدمات تمثلت فى:

١ – المحافظــة على الدير وحمايــة أرواح الرهبان من أى اعتداء، كما امتدت الحماية إلى الزائريــن والمترددين على الدير، وعمل البــدو كغفر لقوافل الدير من وإلى الطور، مقابل أجرة يتفق عليها مع كل رحلة، وإن كان أجر الحراسة فى الغالب يمنح سنويًا، وتختلف القيمة من ســنة لأخرى تبعًا للاتفاقيات المعقــودة بين الطرفين، وأحيانًا كان الأجر يعطى كل ثلاث ســنوات وتســليم الأجر والكســوة كان يتم بشهادة الشــهود مع إثبات ذلك فى ســجلات الدير، وفى كتاب الأم بطرف العربان، وفــى حالات كثيرة كان البدو يتعهدون

(١) فايز إسكندر: المرجع السابق، ص ٤٦ – ٤٧؛ آن وولف: مرجع سابق، ص ٢٨٧.

(٢) انظر الوثيقة رقم ٢٠٢ من نوع المعاهدات فى ٥ جمادى الأولى ١٠٨٩هـ/ ٢٥ يونيو ١٦٧٨م، السروجى: المرجع السابق، ص ١٣، Bassili, OP., CIT., p84.

بضمان بعضهم البعض[1]. وعندما أضعف محمد على سلطة البدو وتحكمهم فى طرق سيناء المختلفة بأن حدد أجور النقل، فلم يتركها لجشع البدو يغالون فيها كما يشاءون، واشترك الفلاحين المصريين فى حق التمتع بنقل البضائع والمسافرين مع عربان سيناء، فأوجد لهم بذلك عنصرًا منافسًا، وحين أخذ بالشدة اللصوص منهم والناهبين، وضمن حفظ الأمن فى طرق سيناء بأن أغرى مشايخ القبائل فأسكنهم مصر، واتخذهم بهذا شبه رهائن يستخلص بواسطتهم حقوق رعاياه كلما اعتدى عليم البدو.

٢ – استخدام خفراء من البدو لحراسة بساتين العنب المملوكة للدير فى مقابل ما يمنحوهم من دقيق وثمار وزيتون بعضها يوزع يوميًا والبعض الآخر سنويًا[2].

٣ – اختصاص كل قبيلة بعمل معين كتزويد الدير بنوع ما من المؤن أو حملها إليه، فقبيلة أولاد صالح كانت تزود الدير بالملح، واختصت قبيلتا العليقات والصوالحة بنقل الرهبان وأمتعتهم ونقل حجاج وزوار الدير خاصة القادمين من المسكوب (أى الروس) وغيرهم من السويس أو الطور، وفى وقت سابق شاركت قبيلة مزينة القبيلتين الآخرتين فى عمليات النقل[3]. وبحكم العادة كان البدو يعتبرون جميع المسافرين وسيلة لكسب العيش ويضعون قواعدهم الخاصة لكيفية الحصول على هذا الكسب.

٤ – اختصت قبيلة الجبالية بسدانة المسجد داخل الدير، هذا بالإضافة إلى عدة أعمال أخرى مثل مساعدة الرهبان فى عمل الخبز، وزراعة بساتين الدير الخارجية.

٥ – البعض عملوا كمرشدين أو أدلاء كسعيد الذى كان «رجلاً طيبًا عادلاً حسب شريعة محمد»، وعمره ٣٥ سنة، وكانت لسعيد شعبية فى أوساط الحجاج المتجهين صوب الدير لأنه فى سنة ١٣٨٤م أثناء حكم السلطان برقوق كان سعيد نفسه هو الذى عمل مرشدًا مع ابنه ومترجمًا لمجموعة الحجاج المصاحبين لليوناردو دى فريسكو بالدى.

---

(١) انظر: أمر سلطانى رقم ١٢٦ فى ١٤ فبراير ١٥٢٨م، وثيقة رقم ١٧١ صادرة من ديوان مصر المحروسة سنة ١٧٧٣م، مخطوط رقم ٢٣١٨ سيناء – يونانى، ص ٦٥، حرر فى ١٦١٨م، مخطوط رقم ٢٢٥٨، الفرمان رقم ١٢٧ فى ١٥ ديسمبر ١٥٣٣م، الفرمان رقم ٢٠٠، فى ٣ سبتمبر ١٦٧٢م، حسن صبحى: «من محفوظات دير طور سيناء العلاقات بين العراب ورهبان الدير فى القرن التاسع عشر»، فى مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م ١٨، ١٩٦٤م، ص ٥٨ – ٦٠.

(٢) انظر الوثيقة رقم ٢٠٢ فى ٢٥ يونيو ١٦٧٨، محمد محمود السروجى: «دير سانت كاترين»، دراسة فى تاريخه الحديث، فى مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م١٨، ١٩٦٤م، ص ١٢٦ – ١٢٧.

(٣) نعوم شقير: المرجع السابق، ص ٣١٣، ٣١٤.

وهكـذا قامـت العلاقات بـين الطرفين على أسـاس من المصالح المشـتركة، ومع ذلك لم يمتنـع البدو فى أحيان كثيرة عن الاعتداء على الدير وممتلكاته عندما تسـنح الفرصة، فهناك سجل كامل يرجع للقرن السابع عشر أفرد معظمه لإثبات الاعتداءات التى حدثت فى فترات متفاوتة من ذلك القرن. وكان الاعتداء يتم بأشـكال مختلفة كأن يعتدى أشـقياء من البدو على الرهبان بالضرب والسـب، أو هدم جزء من سـور الدير[1]، أو دخول «الكرم بالغصب... وهز المشـمش وخطف اللوز أو قطف التين والعنب، أو طلب الطعام والحصول عليه بالقوة»[2].

وقد لعبت الظروف الطبيعية والجغرافية دورًا كبيرًا فى إثارة بعض النزاعات والعلاقات غير الودية بين الطرفين، وفى الحقيقة كان السبب المباشر لاعتداءات البدو هو ذلك التباين الكبير بين فقر البدو وغنى الرهبان، فالدير يمتلك بعض الوديان الخصبة كوادى الأربعين، ووادى فيران، فى الوقت نفسـه الذى كان البدو يعيشون حول تلك الأودية، وكلما نصبت المياه فى مكان يتنقلون إلى مكان آخر سـعيًا وراء الحياة والرزق، وبالتالى وقعت مشاحنات بين الطرفين، وبالإضافة إلى ذلك كان البدو يسـكنون المناور والجبال المجاورة للدير حيث ضايقـوا الرهبان وتربصوا بالحجاج والزائرين، ولهـذا كان لجغرافية المنطقة الجدباء أثرها العام فى تشـكيل الحياة فـى تلك المنطقـة الصحراوية القاحلة بمحاصيلهـا القليلة التى اعتمدت على مياه الأمطار والآبار والتى كثيرًا ما كانت تثير العديد من الخلافات والمشاكل بين الطرفين[3].

وفـى بعـض الأحيان حاول البدو بالقوة أن يخزنوا الغـلال الخاصة بهم داخل مخازن الديـر[4]، وقوبـل ذلك بالرفض الدائم من قبل رجال الدير. وفـى أحيان أخرى كان البدو

(١) انظـر: المخطـوط رقم ٢٣١٨٨ سـيناء – يونانى صحائـف أرقـام ١٢٣، ١٣٨، ١٤٦، ١٥١، كتب فى أعوام ١٦١٩م، ١٦٢٧م، ١٦٤٩م، حسن صبحى: المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) انظر الوثيقة رقم ١٣٣ سيناء – عربى، فى ١٦ جمادى الأولى ٩٤٣هـ/ ٣١ أكتوبر ١٥٣٦م.

(٣) انظـر الوثيقـة رقـم ٨ فى ٣ رجب ٥٢٩هـ/ ١٩ إبريل ١١٣٥م، الوثيقة رقم ٤ فى ٢١ ديسـمبر ١١٩٥م، وهما منشـوران صادران من ديوان الإنشـاء فى مصر المحروسـة، الوثيقة رقم ١٢٧ فى ٢١ شوال ٩٤٤هـ/ ٢٣ مارس ١٥٣٧م، وهـى تتحدث عن تعرض قبيلة بنى سـليمان لنخيل وغيطان مملوكة للرهبـان، الوثيقة رقم ١٢٠ فى ١٣ مايو ١٥٤٩م، ١٢٤ فى ١٥ يناير ١٥٦٣م، وتتحدث عن اعتداءات بعض أفراد قبيلة أولاد سعيد وعربان العوارمة على بساتين الدير.

(٤) انظر الوثيقة رقم ١١.

يغيرون على الدير بغرض سلب حديقته الخارجية، وبالنسبة للبدو المنوط بهم البساتين فكانوا لا يظهرون الجدية فى زراعتها أو تقليم أشجارها بشكل دقيق أو تطعيمها[1].

أما البدو الذين كانوا لا يملكون مأوى فقد حاولوا السكن مع الرهبان مما تسبب فى إيذائهم، وإقلاق راحتهم عن طريق الشوشرة التى عبروا عنها بعبارة «التشويش عليهم»[2]، كما تخبرنا الوثائق.

كما تعددت مضايقات واعتداءات بعض الأشخاص المنتمين لتلك القبائل، فهناك غارة قام بها أحد أفراد قبيلة أولاد سعيد الذى تسلط على الرهبان «الأذية والضرر». أما بعمالى ابن العجمى من قبيلة العوارية فقد تكرر منه الشىء نفسه، بل أنهم تمادوا أكثر فى ذلك وكسروا باب الدير ونهبوا بعض أمتعته وحوالى عشرين أردبًا من القمح، الأمر الذى استدعى إرسال فرمان إلى أمير قبيلة العابد بالشرقية وإلى الحاكم الشرعى بالطور لمطالبتهم بمعالجة تلك الأمور وإعادتها إلى نصابها مجددًا[3].

كما تعدى المدعو موسى بن خالد وبعض أقرانه من بنى سليمان على غيط (حقل) ببندر الطور تابع للدير، وقاموا بقطع المياه الجارية تجاه حقول الدير بهدف إهلاك المحصول، فما كان من الرهبان إلا أن أظهروا ما بأيديهم من فرمانات حررها الوزير على باشا لصالحهم، وطلب فيها من نائب الشرع بالطور والدزدار بمنع هؤلاء العربان الخارجين من الاعتداء على الرهبان وعلى أملاكهم[4].

وقام بعض أفراد من قبيلة تدعى الصراط بالاعتداء على الرهبان، وبالرغم من أن الرهبان قد شكوهم من قبل عند الديوان الأميرى، فإنهم استمروا فى مضايقتهم مما جعل الرهبان يلجأون هذه المرة إلى شيخى قبائل العايد موسى وعبد الكريم يطلبون منهما إحضار البدو لحراستهم بموجب التعاقدات التى وضعت معهم. وعندما تقاعس الشيخان عن تلبية طلب الرهبان توجهوا بشكواهم إلى السلطان سليمات الأول الذى أرسل بدوره فرمانًا إلى الحاكم الشرعى والكاشف بالشرقية لكى يقوموا بمنع العربان من التعدى على الرهبان[5].

---

(١) جـ. كوتل: المصدر السابق، ص ٣١.

(٢) الوثيقة رقم ١٢٤ فى ٨ ذى القعدة ٩٦٦هـ/ ٥ سبتمبر ١٥٥٨م.

(٣) الوثيقة رقم ١٤٨ فى ١٥ جمادى الأولى ٩٧٧هـ/ ٢٦ أكتوبر ١٥٦٩م.

(٤) الوثيقة رقم ١٥٤ فى ٢١ جمادى الآخر ٩٩٠هـ/ ٤ يونيو ١٥٨٢م، وقد امتثل الرهبان للأوامر الكريمة وقابلوها بالسمع والطاعة.

(٥) الوثيقة رقم ١٢٢ فى ١٥ ذى القعدة ٩٥٥هـ/ ١٦ ديسمبر ١٥٤٨م.

كما تشـير إحدى الوثائق إلى أن حاكم الشـرقية والكاشف كان قد طلب منهم والى مصر العمل على اسـتتباب الأمن فى منطقة الدير، خاصة بعد شـكوى الرهبان للسـلطان مراد الثالث (١٥٧٤م – ١٥٩٤م) من قيام بدو من الصوالحة بنهبهم وإيذائهم رغم أن العادة أن لا يدخل عليهم أحد دون إذنهم، بالإضافة لما بأيديهم من حكم يمنحهم مبلغًا من المال منذ فترة حكم الوزير إبراهيم باشا[١].

أما أولاد على السـينائيين فقد كانوا حراسًـا للدرك، ولما لم يقوموا بأعمالهم على أكمل وجه، صدر فرمان إلى شـيوخ قبيلة العايد بإحضار أصحاب الدرك هؤلاء سـالم بن شـيل وأحمـد عبـد القادر وربـاح وأحمد بن جبل ومحمـد بن رزيق وأخوه جماد، وسـلمان بن رزق الله، وبنى سالم ومحمد بن واصل، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من قبيلة الصوالحة، ومن أولاد على، ووقع الإشـهاد عليهم مع القسـم بالله العظيم أنهم سيحافظون على الدير ورهبانه، وكذلك المترددين من زوار وحجاج[٢].

ولم يتوقـف اعتداء البدو على الدير فقط، بل إنهم لمرات عديدة كانوا يسـلبون القوافل المـارة فـى طريقها إلى القاهرة والمحملة بالبن والمنسـوجات، فقد قدم تجار ينبع والحجاز المقيمـين فى مصر العديـد من العرائض ذكروا فيها أنهم بينما كانـوا فى طريقهم إلى مصر سطا بدو الطور على القافلة ونهبوا بضائعهم. وكان رد حاكم السويس بالتشديد عليهم بعدم الاعتداء على القوافل تلك أو على الدير أو التعرض لخدامه بالأذى[٣].

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، بل نجد أشخاصًا بذاتهم قد قاموا بالتعدى على الدير مثل بيبرس بن بعشر وبصحبته بعض الخارجين الذين حاولوا الحصول على الطعام وغيره من الرهبان بالقوة غير أن السـلطات تداركت الأمـر وأصدرت القرارات اللازمة لوضع حد لهؤلاء المعتدين العصاة[٤].

---

(١) الوثيقـة بـدون رقم وهى مؤرخة فى ذى القعدة ٩٩٣هـ/ نوفمبر ١٥٨٥م، وفيما يتعلق بالوزير إبراهيم باشـا فقد استمر واليًا على مصر فى الفترة من ١٥٨٣م إلى ١٥٨٥م، وقد سافر إلى الصعيد استخرج معدن الزمرد، وبعد عودته حاول فتح أحد الكنوز فى جبل الجيوشى ولكنه لم يفلح فطلب لنفسه العزلان وطلى «لسان أفندى» دفتر دار مصر سابقًا ولاية مصر فأرسل السلطان له العزلان، انظر: أحمد شلبى عبد الغنى: المصدر السابق، ص ١٢٠ – ١٢١.

(٢) الوثيقة رقم ١٢٦ فى ٢٣ جمادى الأولى ٩٣٤هـ/ ١٣ فبراير ١٥٢٨م.

(٣) إيمان عبد الفتاح: المرجع السابق، ص ٩٠.

(٤) الوثيقة رقم ١٠٥، فى ٢ شعبان ٩٢٧هـ/ ٨ يوليو ١٥٢٠م.

ويوجد بالدير فرمانات كثيرة تلزم حاكم الطور بمنع البدو من التعدى على الرهبان[1]وحمايتهم، ورفع الأذى عنهم[2]، وكان بعضهم يتوجه إلى القاهرة لمقابلة الباشا، ورفع مظلمتهم إليه، مثلما حدث فى عام ١٥١٨م عندما توجه بعض الرهبان لمقابلة خاير بك لهذا الغرض[3].

ومن الأعمال التى أثارت تخوف الرهبان قيام البدو بالاعتداء على ما يمتلكه الدير من حيوانات كالبغال التى كانوا يؤجرونها لزوار الدير لركوبها ونقل حوائجهم[4]. وعندما تأزمت الأمور بين الطرفين وعجزت المحاولات السلمية عن حلها، هدد الرهبان بإغلاق الدير والتوجه إلى القاهرة والطور أو العودة إلى بلادهم، مما أدى إلى انزعاج البدو، وتعهدهم بالعمل على راحتهم، وكثيرًا ما تكرر تهديد الرهبان بترك الدير مثلما حدث فى أواخر القرن السابع عشر، غير أنهم عدلوا عن تهديدهم بعدما بذلت مساع كثيرة للصلح وتهدئة الخواطر[5]. ويبدو أن التهديد بغلق الدير كان أحد أهم الردود والضغوط على الرهبان.

وفى أثناء استتباب الأمن فى المنطقة كان بعض الرهبان يعيشون فى قلايات خارج الدير من أجل «توبة أكبر ولا يذهبون أبدًا إلى الدير سوى لحضور بعض الاحتفالات الدينية على مدار العام». وفى الحقيقة لم يكن الأمر دائمًا على هذا النحو فمن حين لآخر كان العنف المتطرف يندلع ويتعرض الدير لهجوم البدو الذين كانوا يسيطرون على المنطقة فعليًا. فمثلاً عندما وصل «فرانشيسكو سوريانو» الأب الراعى لدير جبل صهيون فى القدس عام ٤٤٩م، وجد الكثير من البدو كانوا قد قتلوا لتوهم مقدم الدير المدعو مكاريوس الثالث.

وعلينا الإشارة إلى أنه لم يكن فقد البدو يدهم غليظة على الرهبان بل وجد البعض من مسيحى الغرب كالوا النقد الشديد للرهبان، فهناك «فيلكس فابرى» الذى كان كنسيًا

(١) الوثيقة رقم ١٥٨، فى ٢١ ذى القعدة ٩٩١هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٥٨٣م.

(٢) الوثيقة رقم ١٠٢، فى عهد خاير بك فى ٩٢٥هـ/ ١٥١٨م، وهى من نوع المراسيم.

(٣) كان من بين الرهبان الذين حضوا أمام خاير بك لرفع هذه المظلمة «مانويل ومرقص ودميتره ....» انظر الوثيقة رقم ١٠٤ فى ٨ شوال ٩٢٥هـ/ ٣ أكتوبر ١٥١٩م.

(٤) تلك الوثيقة غير مرقمة وبعد الرجوع إلى فهارس كل من سوريال، كلارك، كامل، أعطيناها رقم ١٣٦، وهى مؤرخة فى ٢٠ ذى الحجة ٩٥٤هـ/ ٣١ يناير ١٥٤٨م.

(٥) انظر الفرمان رقم ١٥٧ فى غرة رمضان ٩٩١هـ/ ١٨ سبتمبر ١٥٨٣م، المخطوط رقم ٦٨٨ حوليات ومعاهدات، والمخطوط رقم ٦٨٧ (حوليات ومعاهدات) يونانى ٢٢٥٨ فى القرن الثامن عشر، حسن صبحى: المرجع السابق، ص ٥٤.

كاثوليكيًا قاسـيًا إلى حد ما حيث لم يتردد فى إدانة الرهبان الروم الأرثوذكس الذين كانوا يضعـون قيودًا معينة على الحجاج الغربيين فيمـا يتعلق باحتفالهم بالقداس داخل الدير، وأيضًا إذا توفى حاج كاثوليكى فى مدخل الدير، كان يتم دفنه بالخارج فى مقبرة الدواب حيث اعتبرهم الدير هراطقة مقطوعين وملعونين[1].

وهناك أيضًا «فرانشسـكو سوريانو» من دير جبل صهيون الذى انتقد بقوة هؤلاء الرهبان اليونانيـين المقيمين بالدير باعتبارهم هراطقة وليسـوا جديرين بأن يكونوا حراس الجسـد الثمين كاترين[2].

وتمتلئ مكتبة الدير بالمعاهدات والاتفاقيات بين الطرفين، وهو ما عبرت عنه محفوظات الدير بلفظ «شـورة»، أو «شورى»، هذا بالإضافة إلى كتاب الأم الذى يحتوى على كثير من المعاهدات والمجالس التى عقدوها مع مشـايخ العربان، ووجدت شروط نظمت العلاقة بين الطرفين فى تلك البرية الشاسعة، ووضعت ضمانات تكفل سبل الحياة بين الرهبان والبدو بالشـكل الذى يحقق السلام والطمأنينة والسكينة لقاطنى الدير، ومتطلبات ومصالح البدو، وغالبًا ما كانت الإدارة العثمانية هى الطرف الثالث، وفى أحيان أخرى حل زعماء القبائل ومشايخها محل الإدارة العثمانية كشهود على ضمان تنفيذ تلك المعاهدات[3].

ونتيجـة لتلـك المعاهدات وقعت الجزاءات علـى البدو الذين كانوا يسـيئون إلى الدير وقاطنيه بالقول أو بالفعل[4]. ومن واقع الاطلاع على تلك المعاهدات يمكن استخلاص بعض الأحكام والجزاءات والعقوبات التى كانت عينية، كما نصت على ذلك الفرمانات الصادرة فـى هذا الخصوص[5]، والجـزاءات التعويضية غالبًا ما كانت تعوض من الإبل، وتتفق مع جسـامة الجرم، والتى كانت تتراوح ما بين جمل وخمسـة جمال. وإذا قتل أحد الرهبان

(١) آن وولف: مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(٢) آن وولف: مرجع سابق، ص ٢٩٧.

(٣) انظـر الوثائـق أرقام ١٨٧ فى ٨٦٦هـ/ ١٤٦١١ – ١٤٦٢م، ١٩٧ فـى ١٦٤٣م، ٢٠٠ فى ١٦٧٣م، ٢٠٣ فى ١٦٧٩م، ٢١٠ فى ١٦٩٣م.

(٤) مثل اتفاقية الشورى التى عقدت بين الرهبان على عهد الأسقف «كيرى واصف» وبين مشايخ الصوالحة وأولاد سـعيد والعليقات فى منزل شـيخ العرب «منصور بن المرحوم الشـيخ صيام العائدى فى البرقوقة – العباسـية – فى ٢٤ شعبان ١٠٣٥هـ/ ٨ نوفمبر ١٦٤٣م.

(٥) الوثيقة رقم ٢٠٠ فى ٣ سبتمبر ١٦٧٣م.

عمدًا كان على القاتل أن يقدم لشيخ القبيلة فدية قدرها ألف دينار من الذهب، كما شددت العقوبة على من يقتل أحد زوار الدير من المسلمين أو المسيحيين، فإذا ما حدث ذلك وجب على شيخ العرب إحضار الجانى وتقديم ألف دينار من الذهب لديوان الذخيرة[1].

وقد توالت الشروط والتعليمات التى كان يمكن الاستدلال عليها من وثيقة ترجع إلى عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) والتى نصت على ما يلى:

١ – أن يحافظ قبائل أولاد على والصوالحة وأولاد سالم وأولاد سعيد وغيرهم على الدير ورهبانه وزواره وممتلكاته من الكنائس والبساتين والنخيل بالجبل (جبل الطور) والجبال المحيطة بالدير، وبوادى فيران وساحل الطور بأنفسهم أو بمن يستعينون به من الحراس.

٢ – إذا حضر أحد من المسلمين أو المسيحيين كزوار فلا يدخل أحد من البدو معهم الدير بخيولهم، وألا يتعرضوا لمؤونة الدير القادمة له من مصر (القاهرة) وعليهم حفظ القوافل كذلك.

٣ – إذا اعتدى أحد الرهبان بالقول أو الفعل كان على شيخ قبيلة العايد أن يستوقفه.

٤ – إذا استولى أحد من البدو على كرم من الكروم الخاصة بالدير، أو كسر باب الكرم، أو هدم سورًا، أو قطع حبل الدوار، أو حرق باب الدير، كان عليه أن يدفع جملاً لشيخ العايد[2].

٥ – إذا تعرض الدير للهجوم من قبل البدو بقصد هدمه أو تخريبه أحل للرهبان دم هؤلاء المهاجمين دون لوم أو مساءلة.

٦ – وزيادة فى الحرص على حماية أرواح الرهبان ونظرًا لأن تعاليم دينهم تأبى عليهم حمل السلاح، فقد أبيح لهم استخدام أفراد مسلحين للدفاع عنهم ضد المعتدين ومنحهم حق إطلاق النار عليهم وقتلهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك[3]. ويذكر أن الدير يحتفظ بترسانة

---

(١) الوثيقة رقم ١٩٧ فى ١٠ نوفمبر ١٦٤٣م، الوثيقة رقم ٢٠٠، وفيما يتعلق بديوان الذخيرة فقد اعتادت سجلات المحاكم الشرعية التى تنتمى زمنيًا إلى مطلع العهد العثمانى إلى الإشارة إلى الديوان العالى باسم «ديوان الذخيرة الشريفة»، وصار يعرف بهذا الاسم لفترة من الزمن حتى بعد صدور قانون نامة مصر الذى حدد مواعيد انعقاد هذا الديوان بأربعة أيام فى الأسبوع بحضور باشا مصر أو كتخدا، ويضم الديوان فى عضويته قاضى عسكر أفندى، أو قاضى القضاة، ودفتر دار وروزنامجى، والأمراء الصناجق، وأغوات، ويتولى إدارة شئون الولاية مثل منح التزامات الأراضى الزراعية والجمارك ومقاطعات والرسوم والضرائب...إلخ. للمزيد من التفصيلات انظر: محسن على شومان: «جمارك البهار فى مصر العثمانية ١٥١٧م – ١٦١٨م»، فى الاجتهار، ع ٣٣، بيروت ١٩٩٦م، ص ١٥٢ – ١٥٣.

(٢) الوثيقة رقم ١٢٦ فى جمادى الأولى ٩٣٤هـ/ فبراير ١٥٢٨م.

(٣) الوثيقة رقم ١٩٨، معاهدة على ورق فى ٢٧ شعبان ١٠٥٣هـ/ ١٠ ديسمبر ١٦٤٣م، السروجى: المرجع السابق، ص ١٢٨.

صغيرة للأسلحة الخفيفة تحتوى على بعض من البنادق ذات المحاور استخدمت فى بعض الأحيان ضد اعتداءات البدو. وكان شـيخ قبيلة العايد مناطًا به تعقب الخارجين من البدو ومحاسبتهم وأخذ حقوق الدير منهم لصالح الرهبان[١].

ولكـن بعد مرور نحو أربعة وخمسـين عامًا تخلى بدو من الصوالحة وأولاد سـعيد عن التزاماتهـم نجاه الدير، وقصروا فيما هو مشـهود عليهم، ونتج عن ذلك تخلخل فى نظام الديـر ورهبانه من جـراء تلك المخالفات، غير أن الإدارة العثمانيـة أكدت عليهم بضرورة العودة إلى سابق عهدهم، وإن لم يفعلوا ويرضخوا فسوف تنزل عليهم العقوبات المناسبة[٢].

ويتبين لنا أن شروط وبنود تلك المعاهدات لم يتغير مضمونها كثيرًا اللهم إذا جد جديد فى الأمر، كأن تتبدل أسماء القبائل القاطنة أو أسماء الأفراد الموقعين من البدو أو الشهود من كلا الطرفين تبعًا لمرور الزمن وتبدل الظروف، فالوثيقة الأولى الخاصة بالمعاهدات والشـروط كانـت زمن حكم «مرقص» رئيـس الدير[٣]، حيث تدلنا تلك الوثيقـة على أن جماعة من الرهبان ذهبوا للقاء بعض البدو والذين منهم «العارمى والسـعيدى»، والعليقات، كما تدلنا علـى أن الدير فى ذلـك الوقت كان مغلقًا، وأن قبيلة بنى واصـل المنوط بها توصيل الملح والسـمك إلى الدير لم تقم بذلك منذ فترة، فما كان من الرهبان إلا أن أرسـلوا لزملائهم فى وكالة الدير بالقاهرة يبلغونهم بشـح الملح، الأمر الذى أدى بالأخيرين[٤] أن يشـدوا الرحال نحو البدو فى جوار الريف، والذين كانوا يقومون بأعمال الحراسة لصالح الدير، وأخبروهم بما حدث من جانب قبيلة بنى واصل، فطمأنوهم وأبلغوهم بأنهم سـيكتبون إلى بنى واصل لإيجاد حل مناسب لذلك الأمر، كما أنهم سيكتبون إلى غفران – مطران – الدير فى بندر

(١) الوثيقة ١٢٦، ١٣٨.

(٢) الوثيقة رقم ١٥٠ فى ٢١ محرم ٩٩٠هـ/ ١٥ فبراير ١٥٨٢م.

(٣) المعلومات المتوافرة عن رئيس الدير فى تلك الفترة قليلة، والمتاح منها أن البطريرك مرقص الثالث Morkarios III قـد رقـى بطريركيًا على القدس ١٥١٠م، وظـل الدير بعده بلا مطران مدة تقرب من الثلاثين عامًا، وفى أثنائها فتح الغازى سليم مصر، انظر: شقير: المرجع السابق، ص ٥٢١.

Rabino; Le Monedtere De Fainte, Cathepine Fauvernirs Epicraphieues des ancies Pelerinds., p86.

(٤) مـن بين هـؤلاء الرهبان وجدنا أسماء لـكل من «وكيل الدير دانيـال، الأقلوم زويتمـاس، الرهبان أسماكيوس وقسـطندى الرومى وقزما وجربة والخورى وجراسـيموس وأدسـانيوس ويواكيم والياس والراعب عبد الله الذى كان أقلمًا فى مصر....».

الطور، وفى وادى فيران بخصوص المسألة نفسها [1]. كما توضح الوثيقة أن بدو الصوالحة وأولاد سعيد والعليقات وبدو حضرة وبدو النفعيات وبدو الترابين وبدو تميم وآخرون كان عليهم القيام بخدمات متعددة نحو الدير مقابل جعل معلوم[2]، بل إن بدو السواركة ظلوا يطالبون الدير بمرتب الخفر حتى عام ١٨٧٠م[3].

وتتوالى الوثائق العديدة التى نظمت كيفية قيام العربان بحماية رهبان الدير والشروط الكفيلة بذلك. ففى عام ١٦٧٢م وقعت معاهدة بين الطرفين نظمت العلاقات بين الرهبان وممثلى مشايخ العربان من قبائل العايد والصوالحة وأولاد سعيد والعليقات، وأكدت تلك المعاهدات على ما جاء ببنود المعاهدات والشورات السابقة مثل:

«أن يعمر ويفتح الرهبان ديرهم كسابق عهدهم»[4]، وظلت تلك الشروط على مدار تاريخ الدير الحديث تتغير وتتبدل، أو تزيد، أو تنقص، حسب الظروف حتى وصلت إلى الصورة التى هى عليها الآن، وفى وقت متأخر أصبح على وزارة الدفاع المصرية أن تكون ضامنة للشروط، وأن تقر الأمن فى المنطقة.

ويذكر نعوم شقير أنه ذهب للدير فى يناير ١٩٠٥م كمندوب من قبل سردار الجيش المصرى لعقد اتفاق بين رهبان الدير وعرب الطور بشأن تأجير جمال لتقل الرهبان وأمتعتهم من الطور إلى السويس والعكس[5]...

---

(١) وهؤلاء العربان هم «منصور بن محمد العارمى، حسن بن سليمان السعيدى، عارم بن مبارك العليقى».

(٢) وثيقة رقم ١٨٧ فى ٨٦٦هـ، كتب على أحد أوراقها تاريخها ٨٦٦هـ/ ١٧١٨م، شورة على بنى واصل لأجل الملح فى زمان الريس ماركس «مرقص»، انظر: قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، دراسة وثائقية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)، ص ٢٠٤ – ٢٠٧.

(٣) للمزيد من التفصيلات حول قيمة تلك الأجور، انظر: الوثائق أرقام ٢، ٣، فى ١٦٧٨م، وصورة «اتفاق عقد بين العربان والخفراء والرهبان وأقره المولى بمصر ١٥٤٠م فى ١٩ يونيو منه كما يمدنا كتاب الأم بنص يدلنا على متانة العلاقات التى كانت سائدة بين الطرفين، فقد حضر جماعة الرهبان إلى مجلس الشرع الشريف وهم الأقلوم إسرافيل والراهب (كذا) القاطنين بالطور وصحبتهم عنصرة ومطيع وكلاء الدير وأمروا مولانا الحاكم بإحضار طائفة المواطرة وهم سليم شهاب الدين، ومعه تسعة آخرون وهم فلاحين كرم الراهب المتعاطفين خدمته... وتخالص كل فريق مع الآخر، حرر فى صفر الخير ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م. كتبه الفقير إبراهيم الأزهرى قاطن الطور. محمد أغا دار الطور وأثنى عليه شاهدًا عيرهما». انظر: نعوم شقير: المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٤) انظر الوثائق أرقام ١٩٧، ٢٠٠، ٢١٠.

(٥) شقير: المرجع السابق، ص ٥٢٤.